

المحاضرة 4: مدخل إلى المنطق الأرسطي

الأهداف المسطرة للمحاضرة:

نريد للطالب ان يدرك الجانب التاريخي لتأسيس المنطق الصوري

يعرف أرسطو الانسان أنه حيوان ناطق، وعليه وجب أن يكون منطقي في تفكيره، أي أنه قادر على الحكم على الأشياء والأفكار بالصدق والكذب، واستنتاج النتائج من المقدمات، والاستخدام الواعي للغة، ومن هنا يمكن طرح التساؤل التالي: هل المنطق فطري في الانسان وأنه يمارس التفكير المنطقي منذ بداية تفكيره؟

الجواب على ذلك هو نعم، إلا أن هذا الجواب يفترض مقدما أننا قد عرفنا معنى المنطق والتفكير المنطقي، وهذا ما لم نتعرض له لحد الآن، ولكن يكفي لتبرير هذا الرد أن نعرف أن من بين التعريفات الهامة للمنطق أنه علم الاستدلال المباشر وغير المباشر، أي كيف نستدل على شيء آخر سواء تم ذلك بدون واسطة أو عن طريق واسطة. ولو وضعنا هذا المعنى موضع الاعتبار، وحاولنا أن نحلل ما نقوم به في واقع حياتنا اليومية، لتبين لنا أننا نمارس هذا النوع من التفكير المنطقي، فحين نحاول حل مشكلة نظرية أو عملية، أو ندخل في جدال أو مناقشة، فإننا نمارس في الواقع بدرجات مختلفة نشاطا ذهنيا نسميه بالتفكير المنطقي، فالأنشطة السيكلوجية من الوعي والإدراك والتصور، كلها مقدمات لعملية أكثر تعقيدا تشتمل على حكم أو استدلال.

حقيقة أن معظم معارفنا تتم بشكل مباشر، أي أنها من ذلك النوع الذي يمكن التحقق منه بالملاحظة المباشرة، إلا أن الاستدلال المنطقي يذهب بنا إلى ما هو أبعد من الملاحظة البسيطة، ويتم بشكل غير مباشر خلال شيء نعرفه مسبقا أو نسلم به، على سبيل المثال: وقوع جريمة. المحقق يجمع كل شيء يتعلق بالجريمة من تفاصيل، ولكن الربط بينها يتم بالعقل "التفكير المنطقي".

والخطوات المنطقية تتضح حين تواجه سؤالاً عن السبب في اعتقادنا بشيء من الأشياء أو عن كيفية وصولنا إلى نتيجة من النتائج، فنحن عادة ما تبدأ إجابتنا بالقول: لأن، ويكون هذا متبوعاً بتقرير الأسباب أو الأدلة أو الأسس المنطقية أو مقدمات حجتنا، فحين يتم بوضوح صياغة المقدمات والنتيجة التي تلزم عن هذه المقدمات يكون لدينا ما نسميه في اللغة الاصطلاحية المنطقية: قياساً.

مع العلم بأن معظم تفكيرنا المنطقي في الحياة اليومية لا يكون بهذا الطول، بل يكون من النوع المقتضب، بمعنى أنه لا يتم ذكر جميع مقدمات الحجة، والسبب في ذلك أن الأفراد الذين نتعامل معهم لا يكون لهم في الغالب نفس الخلفية العلمية التي لدينا، فلو كنت أعمل وأنا معرض لسوء الأحوال الجوية، ودرجة الحرارة أقل من ناقص عشرة درجة مئوية، وكانت الثلوج تزداد في التساقط، مما يضطرنني للتوقف عن العمل، ولا يسألني عن سبب التوقف، ولكن لو طلب مني رجل المنطق تقديم حجتي كاملة، لأمكنني صياغتها على النحو التالي:

-حينما يكون الجو غير مناسب للعمل نتيجة سوء الأحوال الجوية، فإن قانون العمل يسمح لي بالتوقف عن العمل

-واليوم كانت الأحوال الجوية سيئة

-إذن فإن قانون العمل يسمح لي بالتوقف عن العمل.

ونخلص إلى أن الإنسان في حياته اليومية يفكر بطريقة منطقية، وإن لم يكن في استطاعته عادة التحقق من ذلك، إلا أن ذلك لا يعني أن تفكيره يتم بطريقة منطقية صحيحة، إذ أنه معرض للخطأ في استدلالاته، ذلك لأن الإنسان قد يسيء استخدام موهبته المنطقية، أو كما يرى "الساوي"، أن الانسان قد يحيد عن الصواب فيعتقد ما هو خطأ، وهو ليس كذلك، وما هو صحيح، وهو ليس كذلك، فإذا تأملنا حال الشعوب البدائية، وجدنا الرجل البدائي غير قادر على تفسير الظواهر تفسيراً منطقياً صحيحاً، لأنه يسارع في الغالب لردها إلى قوى خفية، أو

أرواح طيبة أو شريرة حسب منفعتها الظاهرة له أو ضررها، بل حتى الرجل المتحضر قد يخطئ في استدلالاته العقلية. فمن منا لم يخطئ في أحكامه، ومن منا لم يقع في التناقض مرات عدة، ولهذا كله كانت هناك ضرورة ملحة في أن يبحث الإنسان عن علم يضع له القوانين الضرورية التي يستطيع أن يضبط تفكيره حتى يتجنب الوقوع في الخطأ والتناقض، وكان هذا العلم هو المنطق.

أولاً: التأسيس التاريخي: المنطق هو جملة من القواعد والنظريات التي تبحث في المبادئ العامة للتفكير الصحيح، وضعه أرسطوطاليس (384-322 ق.م)، ولم يكن يسميه بالمنطق بل كان يدعو بالعلم التحليلي، (الأنالوتيقا analitique)، وقد كانت هناك محاولات منطقية سابقة نذكر منها: محاولات السفسطائيون تطوير فن المناقشة والجدل، وإقامة الحجج على ما يدعونه، ولكنهم كانوا يلجؤون إلى حيل لغوية متقنة أكثر من إقامة البراهين على صحة دعاويهم. وفي المقابل، كان هناك سقراط، خصمهم اللدود، إذ نقد المعارف الشائعة، وبحث عن الأسس التي يقوم عليها تسليمنا برأي أو نتيجة معينة، وراح يبحث عن التعريفات، على أساس أن التعريف يظهر ماهية المعرف، ومن الطبيعي كما يقول أرسطو، أن يحرص سقراط على بلوغ الماهية، لأنه كان ينشد وضع الأفكار على صورة قياسية. والماهية هي نقطة البداية في الأقيسة، فهناك أمران يمكن أن ننسبهما إلى سقراط هما: الحجج الاستقرائية والتعريف الكلي، وكلا الأمرين يتصلان بنقطة الانطلاق في العلم.

ولذلك يمكن أن نعتبر ما كان يقوم به السفسطائيون، من جدال وتلاعب بالألفاظ، وخطابة للجمهور، عوامل أساسية في سعي أرسطو لإيجاد أداة من خلالها نتبين صحيح الفكر من فاسده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن شيوخ فن الخطابة تطلب من الخطيب أن يكون بارعا في إقناع الجمهور، ومجادليه، ولن يتأت هذا إلا بإجادة استعمال المنطق.

ويبدو أن ما كان في ذهن أرسطو حين نسب الحجة الاستقرائية لسقراط، هو طريقة سقراط في اختيار أمثلة جزئية لكل من الكليات، مثل العدالة، لكي يكتشف ما ينبغي أن يتوفر في

كل حالة حتى يمكن أن تتدرج بحق تحت هذا الكلي. وكان سقراط، كما هو معروف، يضع نتيجة هذا البحث على هيئة تعريف ليري الأمثلة الجزئية التي ينطبق عليها هذا التعريف ليدرجها تحت هذا الكلي، والحالات التي لا ينطبق عليها ليعبدها عنه.

وقد سار أفلاطون في نفس هذا الطريق، وطور عمليات التصنيف والقسمة، وقال بالصور أو المثل، وهي كليات لها حالاتها الجزئية، وعلى دعائم هذه المثل بنى أفلاطون نسقه الميتافيزيقي والفيزيقي.

كان هذا بلا شك إرهابا بمنطق أرسطو الذي ينظر إليه عادة على أنه مؤسس المنطق، لأنه يعدّ بحق أول من قال بالفكر بوصفه موضوع لعلم خاص، أو على الأقل أقر بإمكانية دراسة المبادئ العامة التي يجب أن تتوافر في التفكير حتى يكون صحيحا، دراسة مستقلة عن مادة موضوع بعينها أو علة بعينها.

وكان لأرسطو العديد من المؤلفات المنطقية التي جمعها تلاميذه وشراحه وأطلقوا عليها اسم اورجانون (أي الآلة أو الأداة) وظل هذا الأورجانون المنهج الوحيد للتفكير حتى مطالع العصور الحديثة، إذ أنه ساد على تفكير رجال العصور الوسطى في الغرب، بعدد فوق فلاسفتها بين الفلسفة اليونانية والدين المسيحي، واعتبروا أرسطو المصدر الوحيد لجميع المعارف، وعدوا منطقهم الطريقة الوحيدة الصحيحة للتفكير، ونظروا إلى أي خارج عن أرسطو وكأنه خرج عن الدين المسيحي. وقد قيل: " إن فلاسفة القرون الوسطى قد ابيضت رؤوسهم دون أن تنتضج عقولهم"، يعني أنه طال أمد اعتراف الفلاسفة السكولائيون بسيادة المنطق الأرسطي دون أن يعلموا أنه ناقص، وقابل للنقد والرفض.

ولذلك فتلك السيطرة الأرسطية على عقول مفكري العصور الوسطى وعصر النهضة، لم تمنع من ظهور بعض المفكرين الذين حاولوا كسر القيود العلمية الأرسطية والفكر المدرسي الخاضع لها، ونذكر على سبيل المثال: شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، أول من نبه إلى

عقم المنطق الأرسطي، طالما أنه -على حد تعبيره- لا يضيف للأذهان شيء عما هو في الأعيان، وأنّ الذكي لا يحتاجه، والغني لا يستفيد منه.

وروجر بيكون (حوالي 1214-1294) الذي نادى باستخدام المنهج العلمي بدلا من الطريقة القياسية، لكن محاولته لم تجد صدى آنذاك. وأقام القديس توما الأكويني (1225 - 1274) فلسفته على دعائم من الفلسفة الأرسطية ومنطقة، وقد قدر لهذه الفلسفة أن تسيطر على عقول المدرسين في تلك الفترة، وبذلك تأكدت سلطة أرسطو العلمية، وأصبح الخروج عن منطقها، خروجاً عن الدين المسيحي نفسه¹.

غير أنه في العالم الإسلامي، فقد اختلف المؤرخون في زمن معرفة المسلمين بمنطق أرسطو، فمن قائل إنهم عرفوه منذ العصر الأموي، ومن قائل، وهو المرجح، أن المنطق كان أول ما نقل إلى العربية من علوم الفلسفة، وقد نقله عبد الله بن المقفع في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، وكان الدافع لترجمته احتياج المسلمين له من أجل الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد العقائد الأخرى المخالفة التي كان يزخر بها العالم الإسلامي، فأرادوا أن يتسلحوا بنفس المنهج الذي يتسلح به أعداؤهم ليردوا عليهم بنفس منطقهم.

وعلى العموم، فقد قام إسحاق بن حنين ومدرسته بنقل الأورجانون الأرسطي كله من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية ثم إلى العربية، كما قام بعض المترجمين الآخرين بنقل أجزاء من هذا الأورجانون إلى العربية أو شرحها أو تقديم ملخصات وافية عنها، كما فعل أبا بشر متى بن يونس، عبد المسيح بن ناعمة الحمصي، وهكذا نستطيع القول أن المسلمين قد عرفوا منطق أرسطو، كما عرفوا الشروح التي قام بها شراح أرسطو وتلاميذه من اليونانيين، وتأثروا بهذا المنطق بدرجات متفاوتة، فبينما كان تأثر علماء الكلام به في حدود البحث في العقائد، واستعانة بعض الفقهاء بالأقيسة المنطقية في مجال الفقه. وتأثر الفلاسفة المسلمون أمثال الكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد بمنطق أرسطو تأثراً بالغاء وانكبوا عليه

¹ محمد مهراڤ، مدخل إلى المنطق الصوري، د ط، دار الثقافة، القاهرة، 1994، ص 7 وما بعدها.

شرحاً وتعليقاً على وجه نستطيع معه القول بأن منطق أرسطو لم يحظ بمثل هذا الاهتمام عند أي شراح آخرين

غير أنّ غالبية الفقهاء، وقفوا من هذا المنطق موقف العداء الصريح، وتتوعد حملاتهم القاسية عليه، ونذكر على سبيل المثال ابن تيمية الذي حاول في كتاباته (نقض المنطق، الرد على المنطقيين (دحض منطق أرسطو، وبيان ما فيه من عيوب وتناقضات.

والواقع أن المنطق لم يكن وحده موضع هذه الحملات، بل شملت كل علوم الفلسفة اليونانية بدعوى أنها خطر على الدين، لأنها قد تقود إلى الزندقة والكفر، إلا أن المنطق كان في الحقيقة البؤرة التي تركزت حولها تلك الحملات، حتى لقد انتشر في العالم الإسلامي ذلك القول المشهور من تمنطق فقد تزندق". وقد بلغت هذه الحملات ذروتها في الفتاوى التي أفتى بها كبار أئمة المسلمين، كتلك الفتاوى المشهورة لابن الصلاح الشهرزوري التي حرم فيها شرعياً الاشتغال بالفلسفة والمنطق، وحث رجال السلطة على طرد الفلاسفة والمناطق من الدولة وتشريدهم وحرق كتبهم.

وفتواه المشهورة تنص على: أن الفلسفة شر والمنطق بابها، وباب الشر شر. فلو تأملنا هذه الفتوى لوجدنا أنها مصاغة على شكل قياس منطقي، من الشكل الأول، وهذا ما يبين أنه، يدعو لأمر ويأتي بمثله.

إلا أن الفقهاء لم يكونوا جميعاً مؤيدين لهذه الحملات، فقد أشاد بعضهم بقيمة الفلسفة والمنطق وفائدتهما في الدفاع عن العقيدة الإسلامية (الغزالي)²، وقد قال هذا الأخير: من لا يستعمل المنطق لا يوثق بعلمه، وكتب في هذا الصدد كتباً منها "معيار العلم" والقسطاس المستقيم".

²على سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ط 3، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص 19 وما بعدها

وهكذا قدّر لمنطق أرسطو أن يسيطر على فكر العصور الوسطى، سواء في الغرب المسيحي أو الشرق الإسلامي، وظلت له هذه السيادة حتى ظهر الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون (1561-1621) والفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (1596-1650) اللذين انتقدا المنطق الأرسطي وتوصلا إلى عقمه، وأنه لم يعد أداة صالحة للبحث عن المعرفة، -دون أن ننسى ما قام به ابن تيمية- إذ وضع أولهما أسس المنهج التجريبي، ونادى ثانيهما بالمنطق الرياضي الاستنباطي، وتطور كليهما فيما بعد وأصبح المنهج التجريبي هو المنهج الذي يقوم عليه العلم الحديث والمعاصر، وتطور المنهج الاستنباطي وأصبح منطقا رياضيا.